في تاريخ الأدب المصري

٤ ـ ابن النبيـــه

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

تتمـــة

المدح والغزل أهم ما طرقه من الأغراض ، أما الوصف فانه يأتى عرضاً غير مقصود ، وقد وصف لنا ما تبتهج به نفسه من مُتع كما ذكرنا ، وأما الرثاء فهو جيد وإن كان قليلاً ، وهو يجيد الرثاء والعزاء ، استمع إليه حين يرثى ويعزى قائلاً :

الناس للموت نحيـل الطراد ... فالسابق السابق منها الجواد
والموت نقاد ، على كفه ... جواهر يختـــار منها الجياد
مصيبة أذكت قلوب الورى ... كأنمـــا فى كل قلب زناد
ياثالث السبطين خلفتنى ... أهيم من همىَ فى كل واد
ويانجيـع الترب أقلقتنى ... كأنما فرشىَ شوك القتـــاد
دفنت فى الترب ولو أنصفوا ... ما كنت إلا فى صميم الفؤاد
خليفة الله اصطبر واحتسب ... فنحنا وهى البيت وأنت العماد
فى العلم والحلم بكم يقتـدى ... إذا دجا الخطب وضل الرشاد

ولعل الظروف التى أحاطت به لم تلجئـه إلى الهجاء ، ولذا لا نعثر عليه فيما بين أيدينا من شعر

— ٦ —

يمتاز شعر ابن النبيه بالسهولة والرقة والعذوبة ، سهولة تذكرنا بديباجة البحترى العذبة فى نقاء ، والسلسة فى امتناع ، وهو مع سهولته يرتفع عن الأسلوب العامى إلا فى النادر جداً ، حين يجد التعبير العامى هو التعبير الذى يؤدى المعنى الكامن فى نفسه تماماً ، ولكنه مع ذلك يهذبه ويشذب أطرافه حتى يعلـــو ويرتفع . وهناك ظاهرتان أخريان فيـه : أولاهما استخدامه كثيراً من الكلمات الفارسية فى شعره ، ولعل لمعيشته بالجزيرة وقربه من بلاد الفرس ، ولحبه التجديد والتظرف أثراً فى ذلك كبيراً ، فأنت تسمع فى شعره كلمة الـلاذ معرب اللاد وهو قماش حرير لطيف جداً ، وتسمع كلمة الـكلهبند وهى مركبة من كله وهو اسم لما يلبس فوق الرأس وبند وهى بمعنى رابط ، ومجموعهما اسم لما يشد به ما على الرأس إلى الذقن لئلا يقع ، ويستعمل كلمة جوكانه بمعنى صولجانه وغير ذلك . وأخراهما تراه فى شعره كما تراه فى شعر غيره من المصريين من حب للبديع وافتتان بأنواعه وفنونه ؛ ولقد أغرم شاعرنا بتلك الأنواع البديعية ، ولاسيما الطباق والاقتباس وحسن التعليل واللف والنشر ومراعاة النظير والجناس والتلميح ، كقوله :

تبسم عن منظوم در ، فان تكلمت جاءت بمنثور

وقوله :

إن جنحوا للسلم فاجنح لها ... ما خـــدع الحرب بتقصير

وقوله يصف الخمر :

بكر إذا ابن سماء مسها لبست ... ثوب الحباب حياء منه وانشحت

وقوله :

فالناس بين بنانه وبيانه ... فى نعمتين رغائب وغرائب

وقوله :

عزيز يوسفى الحسـ ... ـن لم يُشر ولم يسجن
قد ابيضت به عيني ... وللمهجور أن يحزن

ولقد كان حينما يمدح القاضى الفاضل يتأنق ويجتهد الاجتهاد كله فى الصناعة اللفظية شأنه فى ذلك شأن غيره ممن اتصل بالقاضى ومدحه ، ولقد نظم فيه قصيدة استخدم الاقتباس فى كل أبياتها واقتبس من سورة المزمل إذ قال :

قمت ليل الصدود إلا قليلا ... ثم رتلت ذكرهم ترتيـلا
ووصلت السهاد أقبح وصل ... وهجرت الرقاد هجراً جميلا
مسمعى كلّ عن كلام عذولى ... حين ألقى إليه قولاً ثقيلا
وفؤاد قد كان بين ضلوعى ... أخذته الأحباب أخذاً وبيلا
قل لراقى الجفون إن امينى ... فى بحار الدموع سبحاً طويلا الخ

وعلى هذا المنوال نسج قصيدته ، وذلك غير مستغرب على رجل يخاطب القاضى الفاضل الذى كان زعيم الطريقة التى تعنى بالصناعة والبديع . غير أنه لا ينبغى أن نظن أن استخدامه البديع أضاع من جمال الشعر أو حط من قيمته ، فشاعرنا لبق يجيد استخدام البديع من غير أن يؤثر فى جمال الشعر وروعته . هذا ولشاعرنا بعض موشحات ليست بقوية ولا رائعة ، وهى أضعف من شعره العادى ، وأحدها ينطق بدون إعراب ، ولعل

محاولته فى الموشحات لم تنجح فانصرف عنها ولم يكثر من الموشحات ، كما أنه خرج على أوزان الشعر العربى القديم قليلا حينما كان يقول شعراً من الدوبيت ، وهو وزن لم يستعمله العرب القدماء وإنما اخترعه المولدون

— ٧ —

فاتنى أن أذكر لك اسم شاعرنا ، وأنه أبو الحسن على بن الحسن بن يوسف بن يحيى ، ويلقب بكمال الدين ، ويكنى بابن النبيه ، وفاتنى أن أقول لك : إنه كان حاضر البديهة حسن التعليل ، ويذكرون من ذلك أنه رأى الأشرف يوماً يرتعش بالحمى ، فنظم على البديهة وأنشده :

تباً لحُمَّاك التى كست فؤادى ولها !
هل سألتك حاجة فأنت تهتز لها ؟

ومرة انكسر يراع الأشرف وهو يكتب فالتمس غيره فلم يجد فقال له : أقلامك ياكمال قليلة ، فنظم ارتجالاً قوله :

قال الملك الأشرف قولاً رَشداً أقلامك ياكمال قَلَّتْ عددا
ناديت لطول كتب ما تطلقه تحفى وتقط فهى تفنى أبدا

ومرة غُنى بين يدى الملك العزيز دوبيت بالعجمية معناه أنه جعل الليل يرد دارا للحبيب ليحجب الشمس ، فاستحسن المعنى وأرسل إلى وزيره أن يأمر الشعراء بالعمل فى ذلك ، فأنشد كل منهم ما ورد عليه ، ودخل ابن النبيه على الوزير ، فطلب منه أن يعمل فى ذلك ، فاستمهله فأبى فقال :

قلت لليل إذ حبانى حبيباً وغناء يسبى النهى وعقارا
أنت ياليل حاجبى فامنع الصبـ ـح وكن أنت يا دجى برد دارا

وبرد دارا فارسى معرب معناه الحاجب ، والغناء بالفارسية قد يفسر لنا وجهاً من الوجوه التى أدخلت الكلمات الفارسية فى شعر ابن النبيه ، ولسرعة بديهته تلك كان الملك الأشرف كثيرا ما يطلب منه قول الشعر ارتجالاً فى أى موضوع يعن له

سكن ابن النبيه نصيبين ، وهى مدينة فى شمال الجزيرة بعد أن غادر مصر ، وبعد نحو ستين عاماً من مولده (إذ أنا لا نعلم تاريخ ميلاده على وجه التعيين) مات ابن النبيه فى اليوم الحادى والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع عشرة وستمائة .

« تم البحث »

أحمد أحمد بدوى
بالأوقاف الملكية

صورة من ادب السودان

قصيدة نقدية

للأستاذ عبد الله عبد الرحمن

الصورة

تنكّر من وادى العروبة مورد فلا الزهر مُغْتَرٌّ ولا الغصن أمْلَدُ
ولا ماؤه ينساب بين رياضه ولا الطير فى أفنانهن تغرّد
وقفتُ على الوادى مليًّا فهزنى وبَدّد شملى شملُه المتبدد
مضى مُتَنَبيه وحسان دَوْحِه وغاب مَعَرِّيه الحكيم المجدد
أسائله : أين الذين تحدثوا اليك وفى هذا المكان تردّدوا
على ظلك الضافى جلوس وكلما أهاب بهم داعى السماحة أنتدوا

أحمد زكى باشا

كأن لم يكن شيخ العروبة نازلاً به ولها من علمه متزود
زكى ! نصير العرب فى كل موطن بهول ، وماضيها الذى تتقلد
عليك سلام الله أحمد ، هامداً ، وأستغفر المولى ، فما الفضل يهمد
وكان الرجال العبقريون إن قضوا بما لهم من شامل النفع خلّدوا
لقد كنت بَرًّا بالعروبة كلها وفى نصرها قد كنت لا تتردد
إذا طلع الغرب الحديث بآية من العلم كبرى وازدهاه التفرّد
عمدتَ الى التاريخ تسأل حكمه وأثبتَّ أن العرب من قبل مهّدوا
فساحوا وطاروا فى السماء ويممت
سفينُهمُ الكونَ الجديد وأصعدوا

الفرضى

وفوضى على الأكوان جرّت ذيولها وبات يعانيها تمود وسيّد
مظاهرها فى كل نادٍ ، وإنما عواقبها موت الشعور المؤكد
نشت فى زمان فاض غدراً بأهله ودب الى آدابهم فيه مُرقد [1]
لنا لغة أما بنوها فأنكروا فضائلها والمنكر الحق ملحد
هم جهلوا منها علوماً كثيرة وفاتهمو منها المعين المجدد
وما قدّروها فى اللغى حق قدرها وكانوا أناساً للأباعد أخلدوا
وآياتها فى كل يوم وليلة تُثنى ، ولكن بالمحامد تفرد
أرادوا ، وظلم ما أرادوه بيّن ، بما لم يكونوا فاعلين ليحمدوا

(١) المرقد : شراب يخدر